إرشادات في الاعتراف
لآباء البرية

يوسف حبيب

١٩٦٩

مقدمة الطبعة الأولى

بعد أن نشرنا سير بعض آباء البرية القديسين رأينا أن نجول جولة فى فردوس هؤلاء الآباء ، نلتقط من أفواه البعض منهم دراً غالية القيمة وأحجاراً كريمة لبناء حياتنا الروحية ، نلتقط اختبارات الآباء من بطون المخطوطات القديمة نحو سر له أهميته ألا وهو سر التوبة الذى فيه أعطى الله الكاهن سلطان الحل والربط (مت ١٦ : ١٩ ، ١٨ : ١٨ ، ويو ٢٠ : ٢٣) ، وما أحوجنا إلى أن نتعرف على النواحى المختلفة لهذه الاختبارات والاسترشاد بها حيال التجارب والضيقات التى تعترض حياتنا لكى نتشجع ويتقوى رجاؤنا ونتذكر قول الكتاب القائل : الرب يحفظك من كل سوء ، الرب يحفظ نفسك ، الرب يحفظ دخولك وخروجك ، وان نلتمس دوما قوة الله التى شقت البحر الأحمر وأغرقت فرعون وجنوده .

هكذا نثق وهكذا نؤمن أن الرب يسوع ينعم لنا بمغفرة خطايانا ويهبنا النصرة على الشر إن ثبتنا فى التوبة الحقيقية حسب قول الكتاب « . . ارجعوا إلى بكل قلوبكم وبالصوم وبالبكاء والنوح ومزقوا قلوبكم لا ثيابكم وارجعوا الى الرب الهكم » يوئيل ٢ : ١٢و١٣ ، وقوله « أحم كل ليلة سريرى وبدموعى

أبل فراشى ، من ٦ ، وقوله وإن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم ١ يو ٨ ، ٩ ، ـ وعلينا أن نصنع أثماراً تليق بالتوبة ونضاعف هذه الأثمار كما فعل زكا العشار ، وهكذا باتساقنا الدائم نستطيع أن نرضى الرب فى توبتنا أكثر مما يرضيه القديسون فى حياتهم كما شهد تاريخ الكنيسة عن القديسة مريم التائبة انها أرضت الرب فى توبتها أكثر مما أرضته فى حياتها الأولى .

كتبنا سير بعض آباء البرية ونقدم هنا خلاصة أثمار شهية من أثمار فردوس الآباء ـ هى اختبارات بعض الشيوخ الرهبان الممتازين فى المعرفة الروحية عن الاعتراف عن مخطوطات قديمة منها المخطوط رقم ٣٧٦ لاهوت (قديم) بالمتحف القبطى الذى لخصناه ووضعنا له بعض العناوين بعد تنقيح وتصحيح كثير ، وبعد الرجوع لكتاب بستان الرهبان وغيره ، وليساعدنا الرب لنستفيد من هذه الاختبارات النافعة لنصل الى ميناء الخلاص بسلام ـ آمين .

طبعة ثانية سنة ١٩٦٧ .

طبعة ثالثة سنة ١٩٦٩ .

الفصل الأول

الوصايا لا يمكن حفظها إلا بالتلمذة لمعلم مرشد

الراعى الصالح هو الذى يسهر على سلامة الخراف ـ كذلك أنت أيها الكاهن ثبت أبناءك فى كل وقت بكلام التعليم وبحسن تدبير سيرتك وشجعهم بالرجاء الثابت وألبسهم خوذة الإيمان المستقيم والاتكال على الله وأحذهم باستعداد انجيل السلام ، واربط احقادهم بكلام العفة ، وضع بأيديهم سيف الحرب مقابل آلام الشهوة ، أرهم خوافة الدبنوتة المزمعة واذا غلبوا فشجعهم وأمدحهم لأن المديح ينشط الذى يغلب فيجاهد بالأكثر لكى لا يسقط ، وان سقط أحد منهم اشفه مثل طبيب يداوى ابنه ويشفق عليه بالأكثر ولو كان قريباً من الموت ، اعط ابنك الشفاء باستخدام الصلاة والوداعة والصبر وطول الروح والمحبة مع الاتضاع ، الذين يخرجون من مصر (١) عن طريق البرية (٢)

---

(١) ترمز إلى عبودية الشيطان .

(٢) ترمز الى الجهاد ضد أباطيل العالم .

قوهم بالرجاء وسر بهم حتى يبلغوا ارض الموعد وهناك يبقون بلا ألم ويأخذون أجر أعمالهم الحياة الأبدية من خلاصنا يسوع المسيح .

إنه جهاد عظيم وتعب شديد يلقاه المتقدمون فى البداية فشجعهم حتى يصلوا إلى الفرح الذى لا ينطق به ، وما دام للمعترف الاشتياق الشديد والعزم الصادق للتوبة ويريد أن يتقدم إلى المسيح فلا تغلق أمامه الباب لأن السيد يريد أن جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون ، وهو ينتظره وقد أرسله إليك فاستقبله بهشاشة وفرح لتستحق نوال الفرح الابدى مع الأربعة والعشرين قسيساً المتسربلين بالثياب البيض فى ذلك اليوم المخوف المملوء مجداً .

ان وصايا السيد المسيح لا يمكن حفظها(١) بلا تلمذة وتعليم ، ولا تعطى نعمة روح قدسه إلا لمن يحفظ وصاياه ، وقد قال السيد

(١) المقصود بحفظ الوصايا هو أن نسمع ونطيع أوامر الرب المقدسة ونعترف بها ونسلك ونعمل بمقتضاها ، سواء أوامره التى نرى أنها صعبة التنفيذ أو أوامره الخفيفة لأن الله لا يأمرنا بشىء يستحيل تنفيذه . وقد قال القديس بولس الرسول استطيع كل شىء فى المسيح يسوع الذى يقوينى .

المسيح فى انجيل يوحنا : « ان كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد ، روح الحق الذى لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه وأما انتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم » يو ١٤ : ١٥ - ١٧ ، وقال أيضاً : « الذى عنده وصاياى ويحفظها فهو الذى يحبنى والذى يحبنى يحبه أبى وأنا احبه واظهر له ذاتى » يو ١٤ : ٢١ ، وقال « ... إن احبنى أحد يحفظ كلامى ويحبه أبى وإليه نأتى وعنده نصنع منزلا ، الذى لا يحبنى لا يحفظ كلامى » يو ١٤ : ٢٣ و ٢٤ - وقد حقق بهذا أن الذى يحفظ وصاياه يصير مسكنا للروح القدس وان الذى لا يحفظ وصاياه فهو فى الحقيقة لا يحبه .

وقد قال السيد المسيح أيضاً : « كما أحبنى الآب كذلك أحببتكم أنا ، اثبتوا فى محبتى ، إن حفظتم وصاياى تثبتون فى محبتى كما أنى أنا قد حفظت وصايا أبى وأثبت محبته » يو ١٥ : ٩ و ١٠ ، وقال أيضاً : « أن ثبتم فى كلامى فبالحقيقة

تكونون تلاميذي وتعرفون الحق والحق يحرركم » يو ٨: ٣١ ر ٣٢ - والقديس يوحنا الرسول يقول فى رسالته الأولى : « وبهذا نعرف اننا قد عرفناه ان حفظنا وصاياه ، من قال قد عرفته وهو لا يحفظ وصاياه فهو كاذب وأما من حفظ كلمته فحقاً فى هذا قد تكملت محبة الله ١ يو ٢ : ٣ - ٥ .

المعمودية هى بدء التلمذة

ثبت من قول الرب فى انجيل متى أن حفظ الوصايا يحتاج إلى التلمذة لمعلم يتلمذ الإنسان تلمذة الأدب ويعلمه حفظ الوصايا، ذلك لأن الشيطان يجتذب الإنسان الى شهوات الجسد ويميل قلبه الى لذاته وينسيه أمجاد الدهر الآتى ويوم الدينونة الرهيب المخوف المملوء مجداً الذى رسمه الرب للمجازاة والذى سيجازى فيه كل واحد حسب أعماله فدبر للإنسان تدبير التلمذة ، بالمعمودية المقدسة ، ذلك ان الطفل المعمد ليست له خطية يعترف بها سوى عبودية الشيطان بسبب معصية آدم وان اشبينه يعترف عنه بعبودية الشيطان ويعلن انه

يرفض الشيطان وكل أعماله ، ويقبل السيد المسيح وكل نواميسه الانجيلية وبعد ذلك يعمد ، وعندما يكبر الطفل ينفذ ما قد عجز عنه وقت العماد فيكون كلما أخطأ يسرع الى الكاهن يعترف له بخطاياه سواء أكانت كبيرة أم صغيرة ويتعلم حياة حفظ الوصايا عن طريق معلمه ومرشده - لذلك أمر يسوع تلاميذه قائلا : « فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس وعلموهم أن يحفظوا جميع ما اوصيتكم به ، » متى ٢٨ : ١٩ ر ٢٠ » .

المعمودية عتق من عبودية ابليس

الذى يخطىء يبيع نفسه للشيطان ساعة الخطية كما فعل آدم فى الفردوس ، والوقت يملأ الشيطان عقله ويجتذبه الى كراهية الأعمال الصالحة والرغبة فى محبة شهوات الجسد كما قال السيد المسيح فى انجيل يوحنا : « الحق الحق أقول لكم أن كل من يعمل الخطية فهو عبد للخطية والعبد لا يبقى فى البيت الى الأبد أما الابن فيبقى الى الأبد ، فإن حرركم الابن فبالحقيقة

تكونون أحراراً » يو ٨ : ٣٤ - ٣٦ ، وحقق بهذا ان الذى يخطىء يتسلط عليه ابليس الذى هو الخطية ويصير له عبداً ينفذ أوامره - واذا ثبت كذلك فليس له ثبوت مع ابن الله فى البيت الى الأبد ، لكن اذا جاء الى الابن يلتمس العتق يعتقه فيصير حراً ، يأتى إلى الابن على يد الكاهن الذى قد أعطاه سر الكهنوت ليعتق الخطاة من عبودية ابليس ، وعندما يأتون اليه معترفين بالخطية للوقت يعتقهم ابن الله ويمينهم على عمل وصاياه . . لأن الخطية اذا غفرت صار الانسان معتوقاً من سلطان ابليس لأن ابليس بالخطية يملك الانسان فاذا غفرت الخطية عتق من تملك ابليس ، وان الابن أعطى الكهنة سلطان مغفرة الخطية بروح قدسه ، فإذا اعترف للكاهن بخطاياه غفرت للوقت بسلطان الكاهن الممنوح من الله فيصير حراً ويأكل من شجرة الحياة التى هى جسد ودم المسيح، كما يشهد الانجيل المقدس ان الرب قال لتلاميذه: « كما أرسلنى الآب ارسلكم أنا ، ولما قال هذا نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس من غفرتم خطاياه تغفر له ومن أمسكتم خطاياه امسكت يو ٢٠ : ٢١و٢٢ ، فقوله انا ارسلكم اى كما ارسلنى أبى

انا تلذكم واخلصكم واعلمكم حفظ وصايا ابى ، فلذلك أنا أرسلكم أيضاً لتتلذذوا جميع الأمم وتعتقوهم من عبودية ابليس كما عتقتكم وتعلموهم حفظ جميع ما أوصيتكم به ، ومن تلذذتموه وعمدتموه وغفرتم له خطاياه غفرتها أنا أيضاً له ، ومن لا تتلذذوه وتغفروا له خطاياه فهى ممسوكة عليه وغير مغفورة ، فقوله هذا حقق وأوضح أن الاعتراف بالخطية على يد الكاهن هو معمودية دائمة غافرة للخطايا .

المعمودية لا تتكرر

المعمودية واحدة لا تفرغ أبداً ما دام الانسان حيا كما قد أمرنا الروح القدس بتعليم الثلثمائة والخمسين المجتمعين بالقسطنطينية أن نعترف بها كل يوم قائلين نعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا . . هكذا نعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا ونترجى قيامة الأموات وحياة الدهر الآتى ، لأن المعترف بخطاياه دائماً الحافظ الوصايا هو المترجى قيامة الأموات وحياة ذلك الدهر لأنه لو لم يترجاها ويؤمن بها لا يعمل العمل الذى به يصل إليها .

إن كانت المعموديه لا تتكرر فكيف نخاص إذا أخطأنا ؟

التوبة تجديد المعمودية

لما كان ابليس لا يفتر عن خداع الإنسان وجب أن يكون الإنسان معلم دائم - هو الكاهن أب الاعتراف - يعترف له بكل خطية لكى يصير حراً منها... كما يوضح القديس يوحنا ذهبى الفم فى تفسير رسالة رومية قول الرسول : « . . تغيروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم فتختبروا ما هى إرادة الله الصالحة المرضية » رو ١٢ : ٢ ، أى لا تيأس ولا تبقى مطروحاً بل انهض أيضاً وجدد نفسك بالتوبة والدموع والاعتراف بخطاياك .

لقد أمرنا الله ان نلزم حفظ قلوبنا من كل فكر الخطية الذى يبذره ابليس فى قلوبنا ، أمرنا أن نكون دائماً مستيقظين ناظرين الى قلوبنا ، فمتى رأينا فكر خطية قد بذره فينا ابليس دفعناه بعيداً عنا بالصلاة والتضرع الى الرب ولا نمكن القلب من أن يتلذذ بذلك الفكر أو - بترديده ... وإذا رأينا أن ذلك الفكر لا يطرد عنا أسرعنا بكشفه لأب الاعتراف واشهاره بين يديه فنستريح منه . من أجل هذا يلزمنا أن ننقى أفكارنا من البداية ولا يمكننا تنقيتها

إلا بالاعتراف لمن نستحى منه ونفتضح بين يديه عندما نعترف له بها فنتعلم الاتضاع الذى قال عنه القديس الأنبا بمحنس انه باب الله ومنه يدخل الآباء إلى الملكوت .

اما الذى يخطىء بعد المعمودية ولا يتوب ويعترف فهذا يلقى فى الدينونة فى الجحيم إلى الأبد لأن من يموت وهو خاطىء لا يقدر على التوبة كما يقول داود النبى من الذى يعترف لك يارب فى الجحيم ؟ فليس بعد الموت توبة ولا اعتراف ولا خلاص بل خلود فى الجحيم الى الأبد لمن مات وهو خاطىء .

وقد قال القديس مار اسحق السريانى : « المعمودية هى الولادة الأولى من الله والتوبة هى الولادة الثانية كذلك . . . التوبة باب الرحمة المفتوح للذين يريدونه ، وبغير هذا الباب لا يدخل أحد إلى الحياة لأن الكل أخطأوا كما قال الرسول ، وبالنعمة نتبرر مجاناً ، فالتوبة إذن هى النعمة الثانية وهى تتولد فى القلب من الإيمان والمخافة .

من لا يحفظ وصايا المسيح فقد أنكر الايمان

ذكر فى البستان أن القديس مكاريوس الكبير قال هكذا ، أن

الذى يعرف الله ولا يعمل مشيئته هو أشر من الكفار لكونه جحد الذى عرفه ، كما قال الرب أيضاً فى فصل العشر عذارى أنه يقول للجاهلات انى ما اعرفكن ، فقد جحد معرفهن مع كونهن عذارى مؤمنات متعبدات له لما لم يكملوا ما وجب عليهن من حفظ وصاياه وجعلهن جاحدات - وقد أعلمنا بهذا ان الذى يقصر فيما يجب عليه من حفظ الوصايا هو له جاحد ، والذى لا يقبل كلامه فهو جاحد أيضاً كقوله « الذى يجحدنى ولا يقبل كلامى له من يدينه » .

والقديس كيرلس الكبير يشبه ذلك الإنسان بيهـــوذا الاسخريوطى حيث أوضح ان الذى ليس عليه ثياب العرس هو يهوذا الاسخريوطى - وكل الذين يلبسون ثياب النصرانية ولا يعملون الأعمال الصالحة ، اولئك تربط ايديهم وارجلهم ويلقون فى الظلمة البرانية حيث البكاء وصرير الاسنان . وقد اوضح القديس بولس الرسول ذلك صراحة حيث قال « من لا يعتنى بخاصته فقد أنكر الإيمان وهو شر من غير المؤمن » ١ تيموثاوس ٥ : ٨ .

من لا يحفظ وصايا المسيح لا يستحق النظر إليه

القديس اكليمنضس يفسر قول الرب عن الامانة به وحفظ وصاياه فى انجيل يوحنا فيقول. ان نظر الله هو الطهارة الحقيقية، وايس النظر إلى يسوع بالجسد هو نظر الله لأن كثيرين من اليهود القليلى الأمانة قد نظروه جسدياً ولم يؤمنوا به ولم يصنعوا وصاياه ، بل الذى يلزم نفسه حفظ وصاياه قد استحق النظر الى الله بالحقيقة .

ومثل هذا يشهد القديس باخوميوس حين سأله تلميذه تادرس : « ماذا نصنع حتى ننظر الله ، قال له بالحقيقة إن أردت ان تراه فاجتهد قدر قوتك فى عمل جميع الأوامر المكتوبة فى الانجيل وذلك أنه يقول « طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله » ، فاذا ورد الى قلبك ضمير نجس أو بغضاء أو فكر شرير أو احتقار لأخيك أو حسد فارغ . . . تذكر فى هذه الساعة قائلا اذا انا سررت بهذه الافكار لن أر الله ، فتخف عنك الأفكار ولا تقوى عليك .

إذن قد تحقق مما سبق ان من لا يحفظ وصايا المسيح ليس هو مؤمنا ولا عارفا بالله ولا يستحق النظر إليه .

إن من يتقدم ليسير بمرضاة الله ، عليه أولا أن يطهر نيته فإن النية تركها الرب فى جميع الناس ، كذا المشيئة الخيرة والافراز الحسن والمعرفه لأن فعل الروح القدس يبكت الإنسان على الخطيه ويحثه على التوبة . أما من لا يطيع ارشاد الروح القدس ويقاومه فإنه يستمر فى خطيته وتبقى خطيته بلا مغفرة ويخلد فى العقاب إلى الأبد ، ولا تكون له بعد رحمه لأن الرحمة لا تكون أبداً إلا بحفظ وصايا المسيح ، وان وصايا المسيح لا يمكن حفظها إلا بعمل يؤدب ذلك التلميذ كالطفل مع المعلم لا يكتم عنه شيئا - لا من أفعاله ولا من أفكاره - ويتدبر برأى معلمه فى الله ، فمن صار مثل الصبى وتضع اتضاعه ينال ملكوت السموات ، كما يقول الرب فى الانجيل المقدس : « ان لم ترجعوا وتصيروا مثل الاولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات ، ومن اتضع مثل هذا الصبى فهو العظيم فى ملكوت السموات ، وقد حقق الآباء معلمو الكنيسة ان الاعتراف والتلمذة هما الاتضاع والصيرة التى قال عنها ربنا يسوع المسيح .

الفصل الثانى

الاعتراف هو الاتضاع

يشهد جميع الآباء ان الاعتراف هو الاتضاع ويحقق ذلك القديس كاسيان(١) فى المير الذى وضعه على الافراز (التمييز فى الروحيات) حيث يقول أنه بغير افراز لا يمكن لأحد الخلاص ، وسأله سائل عن الافراز الحقيقى فقال هو أن تكشف للآباء أفكارنا وأعمالنا ، ولا نثق البته بأعمالنا ولا برأينا ، لكن فى كل شىء من أعمالنا وتدبيراتنا نستشير الشيوخ ونعمل برأيهم ما يشيرون به علينا ان كان ما يتراءى لنا جيداً أو رديئاً ، حينئذ نسلم من جميع مكائد العدو وحيله(٢) . (٢) من الممكن أن نستشير أحد المرشدين الروحيين ممن نثق انهم على جانب كبير من الخبرة الروحية وذلك الى جانب أب الاعتراف ، وقال فى ذلك الأنبا أشعياء : لا تكشف أسرارك لكل احد لئلا تسبب عثرة لقريبك ، اكشف أفكارك لآبائك الشيوخ لتجد معونة

(١) راجع سيرته فى كتابنا (تعاليم القس دانيال)

بمشورتهم » . وقال أيضاً ... لا تنظر الى كبر السن بل اعتمد على من له علم وعمل وتجربة ومعرفة روحانية لئلا يزيدك سقما بدلا من أن يهبك شفاء .

قال أحد الشيوخ : « ان الافراز الحقيقى لا يكون إلا من الاتضاع والاتضاع هو أن نكشف لأب الاعتراف أفكارنا وأعمالنا ، ولا نثق برأينا بل نستشير الشيوخ المجربين الذين نالوا نعمة الافراز ، ونعمل بكل ما يشيرون به علينا ، فالذى يكشف أفكاره الرديئة لأبائه فانها تخف عنه ، وكما أن الحية اذا خرجت من موضع مظلم إلى ضوء تهرب بسرعة كذلك الأفكار الرديئة إذا كشفت تبطل من أجل فضيلة الاتضاع ، وإذا كانت الصناعات التى نبصرها بعيوننا ونسمعها بأذاننا ونعملها بأيدينا لا نقدر أن نمارسها بذواتنا إن لم نتعلمها أولا من معلميها . أفليست اذن جهالة وحماقة من يريد ان يمارس الصناعة الروحية الغير المرئية بغير معلم؟ مع العلم بأنها أكثر خفاء من جميع الصنائع والخطأ فيها أعظم خسارة من كل ما عداها . . . »

وقال الآب اوغريس Evagrius ، لا تنسى انك اخطأت ولو تبت بل اجعل النوح وتذكار الخطية اتضاعاً لك لكى بالاتضاع تنقى الكبرياء . »

وقال القديس مكاريوس الكبير كما ان الماء اذا سلط على النار يطفئها ويغسل كل ما اكاته ، كذلك ايضا التوبة التى وهبها لنا الرب يسوع تغسل جميع الخطايا والأوجاع والشهوات التى للنفس والجسد معاً » . وكان القديس أرسينيوس مثالا للاتضاع ، لذلك كان دواماً يكشف أفكاره ، وقد ذكر عنه أنه كان يسأل أحد الشيوخ المصريين عن أفكاره فرآه شيخ آخر وقال له يا أبى أرسينيوس كيف وأنت المتأدب بالرومية واليونانية تحتاج الى ان تسأل هذا المصرى الأمى عن أفكارك ؟ أجابه أنا ارسينيوس قائلا . « أما الأدب الرومى واليونانى فإنى عارف بهما جيداً ـ أما الفاظ التى قد أحسنها هذا المصرى فإنى الى الآن لم اتعلمها ـ وكان يقصد طريق الفضيلة .

كما ذكر عنه أنه كان يكشف أفكاره لمرشده الروحى وكان يكتبها فى حال جلوسه فى الفلاية ليكشفها قبل التناول .

لا ينبغي لأحد أن يصنع شيئاً برأي نفسه دون مشورة معلم لأن كثيرين أرادوا أن يعملوا أعمالا مرضية لله ولم يتواضعوا ولم يستشيروا فضلوا عن الطريق الصحيح إن من يستشير في عمل البر ولا يعمله إلا بمشورة هو المتضع ، ومن يفعل ذلك بغير مشورة فهو ضال ومتكبر ، وبهذا نعلم ونتحقق ان الاعتراف هو الاتضاع الحقيقي كما ذكرنا ، وبغير اتضاع حقيقي لا يمكن خلاص ، كما يقول القديس انطونيوس « اني رأيت فخاخ الشيطان منصوبة على الارض فبهت وقلت من الذي يخلص من هذه كلها ؟ ! فسمعت صوتاً يقول ، الاتضاع هو الذي يخلص من هذه كلها » فالقديس انطونيوس وسائر الآباء متفقون على أن التلذذ والمشورة والاعتراف ضرورية للخلاص وأمان لسير في عبادة الله برأي نفسه وحده دون مشورة معلم فلا تثبت له عبادته كما ابتدأ بها .

ويقول أحد الآباء : « الذي يصنع أعمالا بغير مشورة فإن الشياطين يرفعونه بالاكثر ، وهكذا يسقطونه إلى أسفل سريعاً فالذي يقوم بما يفوق قدرته يفتل جسده وحينئذ ينكسر كالقوس زاده توتره أكثر من اللازم .

ورد في سيرة القديس أنبا موسى الأسود أنه كان يتزايد جداً في نسكه وفي جهاده — لكن رغم ذلك كانت المحاربات تزداد وقد نبهه مرشده القديس الأنبا ايسيذورس أن يعتدل في كل شيء حتى في أعمال الحياة النسكية ، وعليه الانسحاق والمداومة على الاتضاع وان يعتمد على رحمة الله ويتقدم للتناول ولما فعل ذلك خف عنه القتال .

ان كثيرين يندفعون في طريق اذلال الجسد دون افراز ودون سماع نصائح المرشد متسائلين في هذا التيار فيسقطون في تعييرات وفخ ابليس .

ويذكر البستان قصصا كثيرة محزنة عن رهبان تركو آباءهم في الرب قائلين « اننا نتوحد ونصوم ونهرب من الناس » فانخدعوا بذلك من الشيطان ولم يصنعوا لا وحدة ولا صوما ولاهروبا من الناس بل تنقلوا بين الأديرة والمدن والقرى وفرح بهم الشيطان وهزأ بهم لأنهم قبلوا خداعه وعملوا مشيئته الخاصة .

ويشهد كتاب الفردوس ان واحداً سأل أنبا تادرس ماهو القول الذي قيل في امثال سليمان الحكيم ان الذين لهم مدبرون

يسقطون مثل الورق والخلاص هو بالمشورة الكثيرة ؟ فأجاب الشيخ القديس وقال: ان الورق في ابتدائه حسن وأخضر وبعد ذلك يبس ويقع ، كذلك الذي ليس له مدبر يستشيره فإنه في بدء سيرته يكون له حرارة في الصوم والصلاة والسهر والسكون ثم بعد ذلك يبتدي قليلا قليلا تبرد تلك الحرارة فيقع مثل الورق ، وما أشبهه في ذلك بشجرة مورقة وبأثمار مخصبة هزتها ريح شديدة فسقطت ثمرته وتعرت من اوراقها وأثمارها وبقيت يابسة ، وهذا ما يلحق بمن يتدبر برأي نفسه ولا يسمع مشورة الحكماء ...

وقوله : « إن الخلاص بمشورة كثيرة » يعني أن يكون لكل إنسان الأب الروحي وهو الكاهن الذي يثق به ويستشيره في جميع أموره ولا يكتمه شيئاً من خطاياه وأوجاعه لأن الانسان إذا لم يظهر أموره كلها ويكشفها ربما وجد فيه الشيطان خطية واحدة مكتومة فيه فيطرحه بها ... وقد لا يظن ذلك الانسان ان هذا الفعل خطية - لكن إذا كشف الانسان اسراره كلها وعمل بما اشير به عليه فلا يقوى عليه الشيطان في شيء أصلا .

ويقول أحد الآباء في ذلك: « لست اعرف للإنسان سقطة إلا

اذا صنع هواه ، فإذا ابصرت واحداً وقع فأعلم أنه انما وقع لأنه كان يقنع برأي نفسه .

وجاء في كتاب البستان أن أخا سأل أنبا بيسيرس ماذا أصنع ؟ ان نفسي ليس لها دموع ولا تنهد ولا تخاف الله ! ؟

فقال له الشيخ « اذهب واجلس مع انسان يخاف الله فهو يعلمك خوف الله » .

والقديس برصنوفيوس هو أيضاً يقول . « الذي يريد أن يعرف الطريق اذا لم يسر مع من يرشده في الطريق من أوله الى آخره فلن يبلغ البتة الى المدينة ، فاترك هواك خلفك واخضع في كل شيء وانت تخلص .

وقد حقق بهذا ان اللذة والطاعة والمشورة هي الاتضاع الحقيق.

وفي موضع آخر يقول في المشورة . « اصنع كل شيء بمشورة

---

(١) الأوجاع غير الخطايا فالخطايا هي عمل الأوجاع بالفعل، والأوجاع هي أسباب الخطايا فقد يوجد انسان فيه الأوجاع كالغضب الضار وشهوة الشر ولا يستعملها (ص ١١٠ البستان الجزء الثاني).

وبلا مشورة لاتصنع شيئا ، لأنه لا يوجد من لايحتاج إلى المشورة إلا الله وحده الذى خلق الحكمة » .

فالذى يظن انه فى غنى عن المشورة فقد شبه نفسه بالله خالق الحكمة ، وهذه هى الكبرياء التى سقط بها آدم من الحياة وخرج من الفردوس لكونه أراد التشبه بالله فى معرفة الخير والشر .

كذلك من يظن انه يعرف الجيـــد من الردىء ولا يحتاج إلى مشورة غيره فقد تكبر تلك الكبرياء عينها .

ان كتب الله تعلمنا ان العدو الشرير له استطاعة ان يحسن للإنسان ما ليس هو حسن ويجعله يظن انه حسن ويقبح عنده ما ليس بقبيح ويجعله يظن انه قبيح ، ومن اجل هذا وجب على كل واحد منا ان لا يثق برأيه فيما يراه انه حسن او قبيح بل فى كل شىء يستشير أب اعترافه الذى قد اتخذه له فى الرب ويؤمن أن كل كلمة يسمعها من فمه ليست من فم المخلوق . . بل من فم الله الخالق الحكيم اذا قبلها بالإيمان بالذى وعدنا انه سيكون معنا جميع الأيام اذا كنا نقتلذ لمن يعلمنا حفظ وصاياه لأنه هكذا قال « تلذذوهم وعلموهم حفظ جميع ما اوصيتكم به وها أنذا معكم جميع الأيام والى انقضاء الدهر » .

وواضح انه لا يكفى الأعتراف بالخطية وبالضيقات للأب الكاهن دون طاعة إرشاده ولو كان مخالفاً لهوى قلوبنا ، ويجب بالأكثر ان نطيع ونتضع لئلا نسقط فإن الشياطين بالمعظمة والمعصية سقطوا وهلكوا .

ونورد هنا الخبر الآتى عن الطاعة :

قيل ان أحد الشيوخ أبصر اربع مراتب مرتفعة الى السماء .

الأولى — مريض صابر شاكر لله

الثانية — صحيح يضيف الغرباء ويقيم الضعفاء

الثالثة — منفرد فى البرية مجتهد

الرابعة — تلميذ ملازم لطاعة أبيه من أجل الله ، ووجد أن مرتبة التلميذ أسمى من المراتب الثلاثة الأخرى — وزعم أنه سأل الذى أراه ذلك قائلا : كيف صار هذا هكذا وهو أصغرهم فأصبح أكبرهم مرتبة ؟ فقال « ان كل واحد منهم يعمل الخير بهواه أما هذا فقد قطع هواه لله واطاع معلمه والطاعة لأجل الله أفضل الفضائل » .

الفصل الثالث

الاعتراف يخلص من العادات الشريرة

كان القديس الأنبا سرابيون يقول مراراً كثيرة للذين كانوا يأتون إليه ، لما كنت تلميذاً في الرهبنة كنت أخفي بعض المأكول وآكله سراً من أبي ، فلما فعلت ذلك مدة من الزمان صرت مغلوباً لا استطيع ان اتخلى عن هذه العادة وكان ضميري يوبخني وكنت استحي ان أخبر الشيخ ، فبتدبير من الله الرحوم جاء اخوة الى الشيخ لطلب منفعة للنفس وسألوه من أجل أفكارهم ـ فأجاب الشيخ وقال لا يوجد أمر يفرح به الشيطان أكثر من أن تخفي أفكارنا عن آبائنا الروحانيين ، ثم كلمهم أيضاً من أجل الصوم ، فلما سمعت كلامه حزنت على ذاتي وندمت على سماجة فعلي واخذني تخشع وصرت ابكي على نفسي وظننت ان الله قد أظهر للشيخ زلتي ، فأخرجت ذلك الشيء الذي كنت أخفيه ، وطرحت نفسي على الأرض وصرت أطلب منه المغفرة عما سبق من زلاتي وسألته الصلاة على ، حينئذ قال لي الشيخ: « يابني من غير ما أصلي

لك قد عتقك اقرارك وصرت حراً . . وقد ذبحت الآن الشيطان الذي كان يستعبدك لما أعطيته السلطان عليك بسوء رأيك وانخداعك له . . لكنه من الآن لن يجد فيك موضعاً لمسرته اذ قد أقصيته عنك باقرارك » . فمع كلام الشيخ خرج فعل العدو على كشل لهيب نار . وامتلأ البيت رائحة منتنة ، فقال لي الشيخ: « هوذا بهذه العلامة التي ظهرت قد حقق الله كلامي وعتقك ، وهكذا باقراري عتقني الله من قتال الحنجرة (كثرة الأكل) .

تبين مما سبق ان الذي يستحي أن يقر بسوء رأيه وفعله وفكره يصير عبداً لإبليس مقهوراً منه لفعل الخطية . وأنه إذا اقر بها فلساعته يعتق منها ، واتضح اذن ان الاعتراف يعتق الانسان من قبر الخطية ، وهذا ما ذكره السيد المسيح ان الابن إذا عتقكم صرتم احراراً .

فإذ قد اتضح ان الاعتراف هو عتق الإبن الذي به يعتق من قد استعبد نفسه للشيطان بالخطية فلا تشك بعد الآن في الاعتراف وايقن بكل يقينك أنه هو المعمودية المعتقة من كل الخطايا والمحررة من عبودية ابليس .

علمنا من قول أنبا سرابيون أن قتال وتنال والاقرار الحقيقي إذا لم نقبل رأي الآباء وتعليمهم، وعلمنا أيضاً أن الشيطان لا يقدر أن يسقط الإنسان في شباكه إذا لم يقنعه قبل كل شيء أن يرفض تعاليم الآباء وإرشاداتهم ويقنع برأي نفسه ويتدبر بهواه الشخصي.

الفصل الرابع

الاعتراف يفضح حيل الشيطان فيهرب

ورد في كتاب البستان خبر يقول فيه: أخبروا عن بعض الإخوة أنه تأذى من قتال شيطان التجديف وإنكار الخالق فمضى الى أنبا بيمين ليكشف له أفكاره، ولما وصل إليه انصرف ولم يقل شيئاً ثم نظر وإذا قتال الشيطان له بهذا الفكر قد زاد فعاد الى الشيخ ليخبره واستحى أن يكشف له أمره فانصرف ثانية ولم يقل له شيئاً وفعل هذا مراراً كثيرة، وكان الحياء يحمله على كتمان أفكاره، فعلم الشيخ ان الأخ عليه قتال من أفكاره وأنه يستحي أن يكشفها له، ولما جاءه ولم يقل له شيئاً كالعادة قال له أنبا بيمين ما بك ايها الأخ

تجيء الى وتنصرف ولا تقل لي شيئاً؟ قال له الأخ: «ما الذي يمكنني أن أقوله لك أيها الأب» فقال له الشيخ «كأني اراك مقاتلا من أفكارك ولا تريد أن تكشفها لي لأنك تخشى ان اخبر بها غيري، وحقا أقول لك أنه كما ان الحائط لا يتكلم كذلك أنا ما اكشف لأحد أمرك». فوثق الأخ بهذا القول وقال للشيخ: «اني في شدة وأخشى أن أهلك من التجديف فإن الشيطان يضيق على الخناق ويريد أن يوقعني بأنه ليس إله، وهذا فكر لا يسوغ لأحد أن يتحدث عنه ولا يقره أحد ولا يفكر فيه»، فقال له الشيخ «لا يفتك هذا الفكر يابني لأن القتالات الجسدانية انما تقوى علينا من توانينا واسترخائنا، فأما هذا الفكر فلا يأتي من توان ولا من استرخاء لكن لمقاومة العدو لنا وحيله، فتى خطر لك هذا الفكر فقم من ساعتك وصل وارشم نفسك بالصليب وقل في نفسك كأنك تخاطب الشيطان: ملعون أنت وملعونة أفكارك وملعون تجديفك، هذا الفكر يكون على رأسك أيها الشيطان، فأما أنا فأقر واؤمن ان الله كائن وهو المعتنى بالخليقة كلها وهذا الفكر ليس هو مني بل منك ياعدو البشر - فإذا أنت فعلت هذا فثق ان الله يرفع عنك هذا الحزن». فانصرف الأخ من

« فانصرف الأخ من عند الشيخ وعمل مثل ما علمه ، فلما رأى الشيطان أنه قد هزمه بتعليم الشيخ له انصرف عنه وعادت نعمة الله إليه .

وفى البستان أيضاً خبر آخر ان راهباً كان حريصاً فتأذى من شيطان النجديف سنين طويلة وأجهد نفسه بالصوم والسهر ولم يجد منفعة البتة ، حينئذ أخذ قرطاساً وكتب هذا الوجع وانطلق إلى أبيه ودفع إليه القرطاس ووقع على وجهه قدام الشيخ ولم يكن يستطيع ان يرفع نظره إليه ، فلما قرأ الشيخ الكتاب ابتسم وأقام الأخ وقال له على عنقى يا ابنى هذه الخطية وكل ما كان منها لا تكترث به ، ومن أجل هذا حقق الأخ أنه قبل أن يخرج من قلاية ذلك الشيخ ارتفع عنه القتال .

وذكر القديس برصنوفيوس فى الغلبة على الشيطان والاتضاع قائلا : « ان نحن اتضعنا فإن الرب يطرد عنا الشيطان، لذلك يجب علينا ان نلوم أنفسنا فى كل حين وفى كل أمر لأن هذه هى الغلبة.

وقال أحد الشيوخ: «ان الشياطين يخفون شرهم ورداءهم ونورهم آخره ظلام فلا تعمل شيئاً بدون مشورة الآباء العارفين بقتالهم .

ذكر البستان أيضاً أن أحد من الرهبان قوتل بالزنى فقام بالليل وذهب الى الشيخ وكشف له سره وسأله أن يصلى من أجله فمزاه الشيخ وشجعه ولما رجع الأخ إلى قلايته اشتد عليه القتال فرجع ثانيه الى الشيخ وفعل ذلك مراراً وكان الشيخ فى كل مرة لا يحزنه ولكنه كان يكلمه بما فيه منفعة نفسه قائلا له. كلما قاتلك هذا الشيطان تعال واكشف أمره فإنه ليس شىء يبعد شيطان الزنى مثل اظهار أفكاره وأعماله وفضيحته ، وليس شىء يفرحه غير كتمان ذلك . فتردد ذلك الأخ على الشيخ فى تلك الليلة احدى عشرة مرة وهو يكشف له أفكاره وأخيراً قال : « قل لى يا أبى كلمة » ، فقال له الشيخ : « ثق يا ابنى لو ان الله سمح ان يقع فكرى وقتالى عليك لما احتملت ولكنت سقطت بالأكثر الى أسفل ، فلما قال الشيخ هذا الكلام بالتضاع كف الله القتال عن الأخ .

هذه الأخبار من البستان يظهر منها ان الفكر لا يتنقى لا بصوم ولا بصلاة ولا بسهر ولا بكل تعب الجسد ولا يتنقى القلب بشىء إلا بالاعتراف، لأن الاعتراف - وهو الاتضاع - يزيل كل ذلك ، لان المعترف اتضاعاً يتضع وبالتضاعه يهرب منه الشيطان كما يقول داود فى المزمور « بالتضاعنا ذكرنا الرب وخلصنا من أيدى أعدائنا .

الفصل الخامس

الاعتراف يخلص من الحزن

ذكر عن القديس ذوروثيوس انه سأل مرة الشيخ أنبا يوحنا تلميذ أنبا برصنوفيوس وقال له : « ان الكتاب يقول انه بأحزان كثيرة ينبغي أن ندخل الى ملكوت السموات وها أنا أرى انه ليس لي شيء من الحزن ، فاذا ينبغي لي أن أعمل لئلا تهلك نفسي فإنه ليس لي حزن ولاهم ، وإذا كان يأتيني فكر كنت آخذ لوحا وأكتبه واعلم الشيخ به . فن قبل أن يفرغ الشيخ من قراءته كنت أحس بالمنفعة ، وبمثل هذا كان لي عدم الاهتمام والراحة والسلام ، وما كنت اعرف كيف تخف عني الهموم والأفكار هكذا ، ولما كنت اسمع انه بأحزان كثيرة ينبغي لنا أن ندخل ملكوت السموات كنت أفزع من أجل أنه ليس لي حزن ، فلما كاشفت الشيخ بهذا الأمر اعلني هكذا قائلا « لا تحزن لشيء لأن كل من سلم نفسه لطاعة معلمه والآباء فمثل هذا النياح وعدم الاهتمام يكون له بالرب.

وقال أحد الآباء :

ان الذي يقر بفكره الشرير يزيله منه الرب لوقته ، ومن أجل هذه الفائدة أمر ربنا تلاميذه أن يكونوا للناس معلمين كما كان هو لهم المعلم الذي جاء إلى العالم ، الذي حفظ تلاميذه من الشرير وكان اذا بذر الشيطان في قلب أحدهم فكراً رديئاً كان من ساعته يبكتهم عليه حتى يعترفوا له ، ويزيله من قلوبهم بتعليمه ، كما فعل معهم حين تفكروا في قلوبهم من هو العظيم فيهم ، وحين فكروا في السفينة انه ليس معهم خبز . . .

قال القديس مار اسحق :

« المريض الذي يعترف بمرضه شفاؤه هين كذلك الذي يقر بأوجاعه فهو قريب من البرء أما القلب الغامي فتكثر أوجاعه والمريض الذي يخالف الطبيب يزيد عذابه .

وذكر البستان القصة التالية :

وقع أخ في بليه ومع الحزن أتلف عمل رهبانيته(١) ، واذ أراد أن يبدأ بالعمل كان يستثقل ذلك ويقول « متى ابلغ الى

(١) عمل الراهب طبقاً للقوانين الكنسية ينحصر في الصوم والصلاة والقراءة في الكتاب المقدس وفي سير القديسين مع العمل اليدوي

ما كنت فيه ؟ وكان يضجر وتصغر نفسه فلا يقدر أن يبدأ بعمل الرهبنة مرة أخرى وأخيراً ذهب الى أحد الشيوخ. فقص عليه أمره، فلما رأى الشيخ حزنه ضرب مثلا قائلا له ، كان انسان له بقيع(١) ومن توانيه امتلأ ذلك البقيع شوكا وانه بعد ذلك اتيته له وأراد أن ينقي ذلك البقيع من الشوك ، فقال لابنه يا بني اذهب الى البقيع وتفقه واقلع شوكه فلما ذهب اليه ورأى كثرة الشوك سئم ومل ونام، وبعد أيام كثيرة أتاه أبوه لينظر ما عمل الغلام ، فلما رآه لم يعمل شيئاً قال : وحتى الآن لم تنق شيئاً ؟ فقال له الغلام اخبرك الحقيقة يا أبتاه ، كلما عزمت على البدء في العمل أبصر كثرة الشوك فأحزن، ومن كثرة الحزن كنت أشعر بالأسى فأنام فقال أبوه : ولا يكون الامر هكذا يا ابني ، ولكن نق كل يوم قدر مفرشك فقط قليلا قليلا ففعل الغلام كما أمره أبوه ودأوم على ذلك حتى فرغ الشوك من ذلك البقيع وأنت كذلك يا حبيبي أبدأ بالعمل شيئاً فشيئاً ولا تضجر والله يطيبه وتعمته بردك الى سيرتك الاولى ، فنهب ذلك الأخ وعمل وصبر كما علمه الشيخ فوجد نياحاً وأفلح .

---

(١) قطعة أرض .